يوحنا ٩، ١-٣٨

٣ الأحد الخامس من يوحنا (الأعمى)

مصير الألم

بين التقمّص والتوارث ومجد الله

"لكن ليظهر مجد الله فيه"

يولد الإنسان وعلى فمه صرخة ألم! ينمو الطفل وأهله يداعبونه بين الطعام والغنج ليخفّفوا من آلامه وصراخه. وتتلوّن بعد نمو الطفل أشكال آلامه وأمراضه، ويضاف عليها مظاهر الألم النفسي التي تبدأ تأخذ لها صوراً أوضح.

يبدو الألم، كما العافية، شيء من طبيعة الجسد. ومن أساسيّات الحياة هي مسألة تخفيف ومعالجة الألم. لذلك تنظر الكنيسة إلى مهنة الطبّ نظرة تقدير خاصّة، فضرورة الطبيب تأتي مباشرة بعد ضرورة الكاهن. وليست قليلة المرات التي تألم فيها يسوع وهو يواجه آلام الناس المعذبين، فشفى المرضى من عميان وبرص ومخلّعين...، والنصّ الإنجيليّ اليوم يعالج الحلّ الأخير الذي لدى يسوع تجاه مسألة الألم في حياة البشر.

ربط الناس قديماً بين المرض والخطيئة، وهذا طبيعي كتشابه بين الشرور الطبيعيّة والأخلاقيّة، وذلك بأشكال مختلفة. فجاءت الأديان السرّية بنظريّة التقمّص، حيث تمرّ النفس البشريّة من عالم إلى آخر تأخذ في هذه العوالم أجساداً تتناسب وشرّها أو فضيلتها. فالملك الذي يخطئ مثلاً يموت في هذا العالم ليدخل في العالم الذي يعقبه ولكن بصورة كائن وضيع أو معذّب أو حيوان... وهكذا تقدم هذه النظرية الدينيّة للتقمّص حلولاً منطقية وتجيب على تساؤلات عديدة في الحياة حول تفاوت الألم وأسبابه وطرق نزعه من

الحياة. فالناس مصابة بآلام متفاوتة في عالمنا هذا بتناسب يتعلّق بفضائلها أو شرورها التي كانت قد تممتها بالحياة الأسبق.

ويمكن إذا ما مارسنا الفضائل اليوم في هذا العالم أن نرفع الكثير من وجه الألم في العالم القادم. وهكذا تصبح الفضيلة حاجة ضروريّة ومنشودة لضمان مستقبل العالم القادم بشكل أفضل. فيمكن للخيرات وللآلام هنا أن تكون سبباً عملياً في إثارة روح الحماس لممارسة الفضائل. وتبدو إذن ممارسة الفضيلة في هذا العالم ذات ثمار مهمة جدّاً، وإن كانت ستظهر في العالم المقبل! فالفضائل التي تبدو هنا خسارة تجاه أطر الظلم والاستغلال وسواها في دنيانا تحتاج لدوافع تتجاوز هذه المعايير تكون سبباً لممارستها! والتقمّص يشكل نظريّة دينيّة فلسفيّة لذلك!

ربط اليهود في العهد القديم أيضاً بين الألم والخطيئة، أي بين الشرّ الطبيعيّ والشرّ الأخلاقيّ. ولذلك هنا، كما يرد في إنجيل يوحنا اليوم، سألوا المسيح من "أخطأ، أهذا أم أبواه حتّى وُلد أعمى"؟

ولطالما اعتبر اليهود الأبرص (البرص مرض قاسٍ) غير طاهر روحياً. ونظروا إلى الفقراء والمرضى نظرة إدانة دينيّة. فالله بالنسبة لهم عادل ويجازي بالحقّ. أو بالمقابل لطالما قدّم العهد القديم الوعود التي تربط بين حفظ الوصايا والسعادة في هذه الدنيا، كطول الأيّام، والغنى والبركات الدنيويّة.

وهكذا أيضاً فالحلّ لرفع الألم هو رفع الشرور الأخلاقيّة، ويصير الألم داعياً لتجنّب الآلام الروحيّة وتصير الخيرات دافعاً لممارسة الفضيلة.

لكن بقي السؤال المحيّر يعذّب الفكر الدينيّ آنذاك، وهو كيف يتألّم البارّ ويسعد الشرّير مرّات عديدة؟ لا بدّ إذن ما دامت الخطيئة لا تنفصل عن الألم، أن الألم يُتوارث. فيرث الأبناء خطايا آبائهم وأجدادهم. وهكذا فهم، وإن كانوا هنا أبراراً أم أشراراً، يحملون ذنباً من ذاتهم أو لربّما من أحد أجدادهم.

ولم ينجح سفر أيوب كثيراً في تحقيق غايته آنذاك وهي تطهير مسألة الألم من الخطيئة. إذ أن السفر يوضح أنّ أيوب الذي كان وبقي باراً كان غنياً سعيداً ثم افتقر وتألّم.

لذلك بقي الألم نوعاً من "الجزاء" الإلهيّ العادل لخطيئتنا الشخصيّة أو العائليّة... ويبقى الله هنا الذي يحرّك التاريخ ويهب الصحّة ويعاقب بالمرض هو الله "العادل"، وعدل الله دافع هام جداً ومنطقي ليدفعنا إلى الحياد عن الشرور وابتغاء الخير.

وفي كنيستنا المسيحيّة تأثّرت بعض التيارات الغربيّة بالفكرة اليهوديّة التي طالما تقرأ الله كعادل ومجازٍ! وصار المسيح ثمناً لخطايانا وفدانا. ويولد الواحد منّا دون علمه حاملاً ذنب آدم وحوّاء والخطيئة الجدّية! وإذا كان الألم قد تطهّر قليلاً عن الماضي من الخطيئة، إلا أن الله يبقى العادل وتبقى الخطيئة "موروثة" من آدم إلينا ولا يمحوها إلا سرّ العماد بقوّته السحريّة! ولطالما، للأسف دخل هذا التعليم في كتب "الديانة المسيحيّة" وفي تربيتنا وتنشئتنا الكنسيّة!

لكن لنا، وبإيماننا الكتابيّ وتقليدنا الروحيّ الشرقيّ، كلمة يسوع لهذا الأعمى هي الكلمة الفصل ولا تحتمل نظريّات بشريّة، إنّها حقيقة الواقع الذي تتحطّم عليها كلّ أمواج الفكر البشريّ الهائج: لا هذا أخطأ (تقمّص) ولا أبواه (توارث الخطيئة).

إذن يبقى السؤال الأخير، هل هناك ارتباط للخطيئة بالألم؟ وكيف؟

نعم، هناك ارتباط بين الخطيئة والألم ولكن ليس على الصعيد الشخصي المباشر إنّما على الصعيد الكوني. فهل ورثنا من آدم خطيئة؟ الجواب هو لا، نحن لم نرث مسؤوليّة خلقيّة على خطيئة آدم، ونتحمّل وزر خطايانا الشخصيّة فقط، ولا نولد بخطيئة جدّية يمحوها العماد! إنّما نعم ورثنا عالماً ساقطاً فيه الأمور غير متوازنة ومضطربة وفيه شرور طبيعيّة وشرور خلقية. والمسيحيّ مسؤول في هذا العالم ومسؤول تجاه إصلاحه وإظهار "مجد الله" الذي خلق كلّ شيء "جيداً جداً" ويريده كذلك.

إذن لا تقمّص ولا توارث ولا ارتباط شخصيّ مباشر بين الألم والخطيئة. ولكن هناك مسؤوليّة مسيحيّة تجاه الألم. لن يرفع الألم برّنا الشخصي مباشرة!. ولن نكون في صحّة إذا عشنا البرّ ولا في مرض إذا أخطأنا! وما ينطبق على تلك النظريات من وقائع في الحياة هو مجرّد "الصدف" وما يخالف تلك النظريات كثير ويكفي لفصل هذا الرباط الخاطئ.

"مجد الله" هو الحلّ المسيحيّ. العالم الحاليّ بضعفاته وخيراته، وخاصّة بضعفاته، هو مكـــان وزمـــان ليظهر فيه مجد الله.

نعم سيظهر مجد الله في اليوم الأخير، حين "سيمسح الله عن كلّ وجه كلّ دمعة"، وسوف يزول كلّ ألم أو تنهّد... وتكون هناك أرض جديدة وسماء جديدة. ونلبس عدم الفساد وعـــدم الألم في أجســـادنا النورانيّة كجسد يسوع تلك التي ننتظرها وأرانا إيّاها يسوع في قيامته، ونحن ما زلنا اليوم في تلك الفتـــرة الفصحيّة التي تمّت فيها غلبة عدم الفساد على مظاهر الفساد.

وبانتظار ذلك التغيير الكونـــيّ الكليّ، تبقى اليوم مسؤوليّتنا في رفع مظاهر الألم جزئيـــاً وتخفيـــف تنهّدات البشر.

الألم ليس ظاهرة تدعو للفضيلة وحسب وليس ظاهرة تبرّر عدل الله. الألم صرخة لإظهار مجد الله، فالمتألّم يحمل نتائج كونيّة كلنا أخوة وشركاء فيها بمقدار ما. إنّه عالم السقوط الذي نعالجه ونصلحه جزئياً إلى أن يأتي السيّد ويرفعه مرّة واحدة كليّاً.

المتألّم بنظرنا ليس خاطئاً أكثر من سواه وليس من سلالة أخطأ فيها جدّه دون أجدادنا، ولا صحّتنا هي برهان ما هو عكس ذلك، بل كما قال بولس الرسول: "يا إخوة لنحتمل نحن الأقوياء وهن الضعفاء". الألم هو عدوّ مشترك طعن هذا أكثر من ذاك بسبب الفوضى وعدم التوازن في عالمنا الحالي.

"من يتألّم ولا أتألّم أنا"! الألم مسألة كونيّة ومسؤوليّة جماعيّة. ومجد الله لا يتحقّق إلا بتعاضد الناس وحمل الواحد مسؤوليّة أوهان الآخر.

يُرفع الألم لا بالتقمّص ولا بالتوارث بل بالتعاضد.

آميـــــــن